جنـــاية أحمد أمين
على الأدب العربى
للدكتور زكى مبارك

— ١١ —

لا يريد الأستاذ أحمد أمين أن يفهم أن النقد من علائم الصداقة للحقائق وليس من علائم العداوة للأشخاص ، ولا يريد أن يفهم أن ما بيننا وبينه من صداقة لا يجب أن يتعرض للزوال بسبب هذه المقالات التى فرضها الضمير والواجب ، وكان خليقاً بأن يفهم وحى الضمير والواجب

ولو قد فهم هذه البديهيات لما استباح لنفسه أن يقول :

« كل الصلات بيننا مفقودة ، فلا صلة بين الأستاذ وطلبته إلا الدرس ، ولا بين الأديب وقرائه إلا صلة القراءة إن كانت ، ولا صلة بين الأدباء أنفسهم إلا صلة السباب ، فإن لم يكن سباب فرياء... »

وهذه الكلمات تدل على أن صديقنا أحمد أمين قد ضاق ذرعاً بدنياه منذ اليوم الذى رأى فيه لأول مرة كيف توضع منزلته الأدبية فى الميزان

فالأساتذة عنده قد انقطع ما بينهم وبين تلاميذهم ، والكتاب قد انفصم ما بينهم وبين قرائهم ، أما الأدباء فيما بينهم فيتعاملون على أساسين اثنين : السباب والرياء

وكذلك يرانا من السابين ، ويرى أصحابه من المرائين !

والأستاذ أحمد أمين متشائم إلى أبعد الحدود . ولو شئت لنبهته إلى خطأ هذا التشاؤم فأكدت له أن الأدباء عندنا أحسن حالاً مما يتوهم ، فقد كتب إلى كثير من أصدقائه وتلاميذه يرجونى أن أترفق فى النقد ، وشهد ناس بأنه كان حسن النية فيما كتب عن الأدب العربى ، ولم يكن إلا مجتهداً خانه التوفيق ، وللمجتهد أجرٌ حين يخطئ وأجران حين يصيب

وقد هممت بالتجاوز عن جناية هذا الصديق على الأدب العربى ليقضى بقية هذا الصيف فى هدوء وأمان ، وليجد الفرصة لمناجاة (بحر العرب) وهو يقتعد صخرة المكس ، ولكنى تذكرتُ أن هذه المقالات لا تخلو من فوائد أدبية ، وتذكرت أنه على كل حال من طلاّب الحقائق ، وطالب الحقيقة قد يشرب من أجلها العلقم والصاب

* * *

وأرجع إلى حديث اليوم فأقول :

إن الأستاذ أحمد أمين يرى أن ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة وإن اشتهر بوصف الطبيعة

وليس من المستغرَب أن يقف أحمد أمين من ابن خفاجة حيثُ وقف ، فهو على فضله لا يتذوق الشعر إلا فى النادر القليل

فكل أديب فى الدنيا حدثته نفسه بأن ينظم من الشعر بيتاً أو بيتين ، حتى الدكتور طه حسين ، فقد كان له فى مطلع حياته غرامٌ بصوغ القريض ، وسنعرض للمجهول من حياته الشعرية بعد حين أما أحمد أمين فلم يفكر يوماً فى نظم الشعر

والواقع أن عظماء الكتّاب فى جميع البلاد كانت لهم نزعات شعرية ، لأن للشعر مزية قوية فى تكوين الأسلوب ، وهو الذى يروض الكاتب على خلق الصور والإحساس بالرنين

والكاتب الحق هو الذى يعانى من الكاره ما يعانيه الشاعر ، وقد أخطأ أبو هلال حين توهم أن النثر كلام غير منظوم ، مع أن أبا هلال كان من أهل البصر بأسرار البيان

* * *

مالى ولهذا ؟

أنا أريد أن أنصف ابن خفاجة الذى ظلمه الأستاذ أحمد أمين

كان ابن خفاجة يسمّى « الجنّان » وهى تسمية تشهد لأسلافنا بسلامة الذوق . وكان يسمّى « صنوبرىّ الأندلس » كان ابن خفاجة جنّاناً ، لأنه قضى دهره فى وصف الرياض

ولا سيما البحث عن الحق فى أمور حياة الناس التى تتحكم فيها الأهواء والأوهام ، وقد يحسب الساذج أن الحق فى حياة الناس كالحق فى علم الحساب بمقدار معين لا شك فيه ولا تغير ، ولكن الساذج إذا اختبر الحياة واستطاع أن يقضى بخبرته على سذاجته علم أن أحوج الناس إلى مظاهر الحق هم أهل الباطل ، ومن هذه الحاجة نشأ سعارهم ، ولم ينشأ ذلك السعار من شدة الإخلاص للحق بل من شدة شعورهم أنهم على باطل يحتاج إلى مظاهر الحق

عبد الرحمن شكرى

والبساتين ، وكانت جنته هي الأندلس وقد فضلها على جنة الخُلد ، ومن أجل ذلك اتهمه بعض معاصريه بالمروق حين قال :

يا أهل أندلسٍ لله درُّكمُ ... ماءٌ وظلٌّ وأشجارٌ وأنهارُ
ما جنّة الخُلد إلا في دياركمُ ... ولو تخيرت هذي كنت أختارُ
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تُدخَل بعد الجنة النارُ

والحق أن ابن خفاجة فُتِن بمناظر بلاده أشد الفتون ، فكان يترصد الفرص لوصف ما ترى العيون أو تحسّ القلوب بتلك البلاد

وكان في شعره ونثره قيثارة تجود بأعذب الألحان في وصف الأشجار والأزهار والأنهار والسواقي والسحائب والبروق

وقد ظل ابن خفاجة مفتوناً بوصف الطبيعة نحو ثمانين سنة فهل يسوغ لإنسان أن يقول بأنه لم يتذوق الطبيعة في كل ذلك الأمد الطويل وهو يتغنى بها صباحَ مساء ؟

وكيف وكان ابن خفاجة مُرهف الإحساس إلى حدّ الخبال ؟

إن ابن خفاجة هو الشاعر الذي تفرّد بالحنان إلى الطبيعة في جميع المناحي الشعرية ، حتى في قصائد الرثاء ، فكيف يجوز القول بأنه وصف الطبيعة بلا وعي ولا إحساس ؟

يضاف إلى ذلك أن ابن خفاجة عُرف بين معاصريه بالزهد في مدح الملوك والترفع عن جوائزهم السنيّة ، في زمن كان فيه المديح مذهباً لا يغضّ من أقدار الشعراء ، ولا يعرّضهم لسفاهة القيل والقال ، فاتسع وقته لمناجاة عرائس الشعر في هدوء وصفاء

إن ابن خفاجة صاحب مذهب في الشعر العربي ، ومنزلته في وصف الرياض لا تقلّ عن منزلة أبي نواس في الخمريات والشريف الرضي في الحجازيات

ومن الذي ينكر قيمة الشاعر الذي يقول :

لله نهرٌ سال في بطحاء ... أشهى وُروداً من لَمَى الحسناء
متعطفٌ مثل السوار كأنهُ ... والزهر يكنفه مجرُّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قرصاً مُفرغاً ... من فضةٍ في بُردةٍ خضراء
وغدت تحفّ به الغصون كأنها ... هدبٌ تحفّ بمقلةٍ زرقاء
ولطالما عاطيتُ فيه مدامةً ... صفراء تخضب أيديَ الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لُجين الماء

وكيف يتهم في وصف الطبيعة من يقول :

حثّ المدامة والنسيم عليلُ ... والظل خفّاقُ الرواق ظليلُ
والنّور طرفٌ قد تنبه دامعٌ ... والماء مبتسمٌ يروق صقيل
وتطلعتْ من برق كل غمامةٍ ... في كل أفقٍ رايةٌ ورعيلُ
حتى تهادى كل خوطة أيكةٍ ... ريّا وغصّتْ تلعةٌ ومسيل
فالروض يهتز المعاطف نعمةً ... نشوان يعطفه الصبا فيميل
ريّان فضّضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهّب صفحتيه أصيل
وارند ينظر في نقاب غمامةٍ ... طرفٌ يمرّضه النعاس كليل
ساجٍ كما يرنو إلى عوّاده ... شاكٍ ويلتمح المزنّ ذليلُ

وهذا شعرٌ يفسده الشرح والتفسير والتحليل

وهل تحتاج محاسن هذه الأبيات إلى من يقيم عليها الدليل ؟

ومن الذي ينكر فراهة الفتون في الأبيات الآتية :

وأغيد في صدر الندىّ لحسنهِ ... حليٌّ وفي صدر القصيد نسيبُ
من الهيف أما ردفه فتنعّمٌ ... خصيبٌ وأما خصره فجديب
يرفّ بروض الحسن من نور وجهه ... وقامتــه نُوّارةٌ وقضيب
جلاها وقد غنّى الحمام عشيّةً ... مجوزاً عليها للحَباب مشيب
وجاء بها حمراء ، أما مزاجها ... فماء ، وأما ملؤها فلهيب
على لجة ترتجّ ، أما حَبابها ... فنورٌ ، وأما موجها فكثيب
تجافتْ بها عنا الحوادث برهةً ... وقد ساعدتنا قهوةٌ وحبيبُ
وغازلنا جفنٌ هناك كنرجس ... ومبتسمٌ للأقحوان شنيب
فلله ذيلٌ للتصابي سحبتُهُ ... وعيش بأطراف الشباب رطيب

أرأيت كيف فَنِيَ الشاعر في الطبيعة فجعلها أصل الحسن والفُتون ؟

أرأيت كيف غَرِق هذا الشاعر في بحار الصباحة والملاحة ، وكيف رأى الزهر والماء أصلاً لكل مليح وجميل ؟

وما رأى الأستاذ في الأبيات الآتية :

وصقيل إفرند الشباب بطرفه ... سقمٌ وللعضب الحسام ذُبابُ
يمشي الهوينا نخوةً ولربما ... أطّرته طوراً نشوةٌ وشباب
شتى المحاسن ، للوضاءة ريطة ... أبداً عليه ، وللحياء نقاب
وبعطفيــه للشبيبة منهلٌ ... قد شفّ عنه من القميص سراب
عَبَر الخليج سباحةً فكأنما ... أهوى فشقّ به السماء شهاب
لقد احتللت بشاطئيه يهزني ... طرباً شباب رائقي وشراب
وانساب بي نهر يعب وزورق ... فتحملتني عقرب وحُباب
وركبت دجلته يضاحكني بها ... فرحاً حبيب شاقني وحَباب

تجلو من الدنيا عروساً بيننا   حسناء ترشف والمدام رُضاب
ثم ارتحلتُ وللسماء ذؤابةٌ   شهباء تخضب والظلام خضاب
تلوى معاطف الصبابة والصبا   والليل دون الكاشحين حجاب
حيث استقل الجسر فوق زوارق   نسقت كما تتواكب الأحباب

فهل فكر صديقنا أحمد أمين فى وصف السباحة وقد سبقه إليها ابن خفاجة بنحو تسعة قرون ؟

إن الذى عجز عن وصف الطبيعة هو الذى يصطاف بالأسكندرية كل سنة ولم يفتح الله عليه بغير القول بأنه جلس على صخرة المكس ليأكل السمك المياس ، وليفكر فى مصير الشمس بعد الغروب ، وليقول إنه تحاور مع هيان بن بيان ! !

يقول أحمد أمين إن ابن خفاجة لم يتذوق الطبيعة ، فهل استمع إليه حين يقول :

ربما استضحك الحباب حبيبٌ   نفضتْ ثوبها عليه المدامُ
كلما مرّ قاصراً من خُطاه   يتهادى كما يمرّ الغمام
سلم الغصن والكثيب علينا   فعلى الغصن والكثيب سلامُ

وهل استمع إليه حين يقول :

أبى البرق إلا أن يحن فؤاد   ويكحل أجفان المحب سهاد
فبت ولى من قانئ الدمع قهوة   تدار ، ومن إحدى يدى وساد
تنوح لى الورقاء وهى خلية   ويهمل دمع المزن وهو جماد
وليل كما مدّ الغراب جناحه   وسال على وجه السجل مداد
به من وميض البرق والليل فحمة   شرارٌ تراءى والغمام زناد
سريتُ به أُحْيِيه لا حُيّة السُّرى   تموت ولا مَيْتُ الصباح يعاد
يقلب منى العزم إنسان مُقلة   لها الأفق جفنٌ والظلام سواد
بخرق لقلب البرق خفقة روعة   به وللحظ النجم فيه سهاد(1)
سحيقٌ ولا غير الرياح ركائبٌ   هنالك ولا غير الغمام مزاد
كأنى وأحشاء البلاد تجننى   سريرةُ حبٍ والظلام فؤاد
ولما تفرّى من دجى الليل طحلبٌ   وأعرض من ماء الصباح ثماد
حننتُ وقد ناح الحمام صبابةً   وشُقّ من الليل البهيم حداد
على حين شطّتْ بالحبائب نيّةٌ   وحالتْ فياف بيننا وبلاد

***

ومن مزايا ابن خفاجة أنه يتمثل الطبيعة فى حركة وحياة ، فيراها ترضى وتغضب ، وتضحك وتعبس ، كأن يقول :

عاط أخلاءك المداما   واستسق للأيكة الغماما
وراقص الغصن وهو رطبٌ   يقطرُ أو طارح الحماما
وقد تهادى بها نسيمٌ   حيّتْ سليمى بها سلاما
فتلك أفنانها نشاوى   تشرب أكوابها قياما

وكأنْ يقول :

ألق المصافى حيث بعثر بالحصى   نهرٌ وتعبث بالغصون شمالُ
وكأن ما بين الغصون تنازُعٌ   فيه وما بين المياه جدال

وكأنْ يقول :

أخذ الربيع عليه كل ثنيةٍ   فبكل مرقبةٍ لواء شقيق

فهو فى هذه الأشعار يمنح الطبيعة من الحياة والحركة ما يماثل شمائل الأحياء

وأريد أن أقول إن الطبيعة فى نفس ابن خفاجة لها عزيمة وإرادة وقدرة وعبقرية ، فهى تصنع ما تصنع عن نظرٍ ثاقب وقلبٍ مشبوب ، هى نفس حساسة ، تشعر وتُدرك ، وتُفيض البؤس والنعيم على الأحياء بإرادة وعزم وإحساس

وقد وقع فى كلام الشعراء ما يشابه هذه المعانى ، ولكن ابن خفاجة أكثرمنها إكثاراً ميّزه بالتفوق والتفرد ، فهو أوحد الناس فى بابه بلا جدال

وكان ابن خفاجة يُقسم بما فى الطبيعة من أنهار ورياض وأزهار وأنداء ومباسم وعيون ، فيقول :

أما والتفات الروض من أزرق النهر
وإشراق جيد الغصن فى حِلْية الدهر
وقد نَسَمتْ ريح النعامى فتنبّهتْ
عيونُ الندامى تحت ريحانة الفجر

وهى قصيدة طويلة امتزجتْ فيها نفس الشاعر بأسرار الطبيعة أشدّ امتزاج

والطبيعة تواجه ابن خفاجة حيثما تلفّت ، فهو يراها فى كل مكان ، وانظر كيف يقول :

يا رُبّ ليلٍ بِتُّهُ   وكأنه من وَحفِ شَعرِكْ
تهمِلُ مزنة دمعتى   فيه ويندى نَور ذكركْ
أنبتُّ فيه وقد بكيت   عقيق خدك درَّ ثغرك
وشرقتُ فيك بعبرةٍ   قد وردتها نار هجرك
فكأنما ينفضّ عن   حَبَبٍ لها رمان صدرك
ورُبّ ليلٍ قد صدعتُ   ظلامه بجبين بدرك

(1) الخرق — بالفتح — الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح

ولموتٌ فيــه بدُرَّةٍ مكنونةٍ فى حُقِّ خِدرِك
تَندَى شقائق وَجنتيــك به وتَنْفَحُ ريح نَشْرِك
وقد اســتدار بصفحتَىْ سوسانِ جيدك طَلُّ درِّك
حيث الحبــابة دمعةٌ تجرى بوجنة كأس خمرك
ويهــزُّ منك فتنثنى بقضيب قدِّك ريح سكرك

وهو فى هذه القصيدة يخلع محاسن الطبيعة على الملاح ، وقد يخلع محاسن الملاح على الطبيعة فيقول :

وكمامة حَدَرَ الصباحُ قناعها عن صفحة تندَى من الأزهارِ
فى أبطحٍ رضعتْ ثغور أقاحهِ أخلاف كل غمامةٍ مدرارِ
نثرتْ بحجر الأرض فيه يد الصَّبا دُرر النــدى ودراهم النُّوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت حَلْيَ السحاب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جَذِلٍ وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفُض بكرةً لِممَ الرُّبا والطلُّ ينضحُ أوجه الأشجار
وأراكةٍ سجع الهديل بفرعها والصبحُ يسفر عن جبين نهار
هزّت له أعطافها ولربما خلعتْ عليــه مُلاءة الأنوار

وهذا والله أنفس ماقيل فى اتصال الأحاسيس بغرائب الوجود

وأشعار ابن خفاجة تشهد بأنه كان يحتفل بالمعانى كل الاحتفال وكان يرى شعره نفحة من نفحات الجمال ، كأنْ يقول :

تعلقتُه نشوان من خمر ريقهِ له رشفها دونى ولى دونه السكر
ترقرق ماءٌ مقلتاى ووجهه ويُذْكَى على قلبى ووجنته الجمر
وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما له منطق ثغر ، ولى ثغره شعر

وقد توجّع ابن خفاجة لضياع الشباب أشد التوجع ورأى فى ملاحة الطبيعة عزاء عما ضاع من سماحة الملاح ، فقال :

وكل امرئٍ طاشت به غرة الصِّبا إذا ما تحلَّى بالمشيب تحلَّما
فها أنا ألقى كل ليل بليلةٍ من الهم يستجرى من الدمع أنجما
وأركب أرداف الرُّبا متأسفاً فأنشق أنفاس الصبا متنسِّما
وأرشف ثغر الطل من كل وردة مكان بياض الثغر من حوّة اللَّمى

وهو بهذه الأبيات يجعل الجمال الإنسانى أجمل ما فى الطبيعة من ألوان ، وهى نظرة سليمة لا ينكرها غير الذين يرون الشجرة والزهرة أصلاً لكل جمال

وكان ابن خفاجة فى أيام توجعه على صباه يتمنى لو يعرف مصير النفس بعد الموت ، كأن يقول فى رثاء بعض الأصدقاء :

كنا اصطحبنا والتشا كلُ نسبةٌ حتى كأنا عاتقٌ ونجــادُ
ثم افترقنا لا لعودة صحبة حتى كأنا شــعلة وزناد
يا أيها النائى ولست بمسمع سَكَنَ القبور وبيننا أسداد
ما تفعل النفس النفيسة عندما تتهاجر الأرواح والأجساد
كُشِفَ الغطاء إليك عن سر الردى فأجبْ بما تنــدى به الأكباد

وهى لفتة فلسفية لاذ بها شاعرنا شوقى فى أكثر قصائد الرثاء

أما بعد فقد كنا نحب أن نذكر شواهد من نثر ابن خفاجة تمثل هيامه بالطبيعة والوجود ، ولكنا رأينا الدكتور ضيف سبقنا إلى ذلك فى كتابه «بلاغة العرب فى الأندلس» ونحن نبغض الحديث المعاد

وما الذى يوجب أن نلحّ فى شرح مذهب ابن خفاجة وهو معروف لجميع الناس ؟ لقد أردنا أن ننتهز الفرصة فنمتع أنفسنا بالنظر فى ديوان ابن خفاجة من جديد ، ونذكر به الشبان الذين شغلتهم عنه ملاهى العصر الحديث

ويدعونى الواجب فى ختام هــذا المقال إلى الثناء على أديبين فاضلين يهتمان بديوان ابن خفاجة ويعدان له دراسة أدبية تحفظ مكانه فى التاريخ. أما الأديب الأول فهو عزيز عبدالسلام فهمى. وأما الأديب الثانى فهو جاسم محمد الرجب ؛ وأولهما صديق عرفته بكلية الآداب فى القاهرة ، وثانيهما صديق عرفته بدار المعلمين العالية فى بغداد

فمتى تظهر جهود هذين الأديبين فى إحياء ذلك الديوان ؟

لقد ظهر ديوان ابن خفاجة بالقاهرة منذ اثنين وسبعين سنة ، فكيف جاز ألا يطبع مرة ثانية بعد ذلك الأمد الطويل العريض ؟

إن اللغة العربية لغة حية وقراؤها يشارفون المئة مليون ، فكيف زهدت تلك الملايين فى ذلك الشعر النفيس ؟ !

إن ديوان ابن خفاجة وصل إلى أقصى بقاع الشرق الإسلامى قبل ظهور المطابع ، فكيف يحجب اليوم بعد الانتفاع بالمطبعة السريعة والبريد المضمون ؟

ومن أعجب العجب أن يتولى تزهيد العرب فى آثار أسلافهم رجل تعرفه كلية الآداب التى توجب على أبنائها أن يتعرفوا إلى آثار القدماء من الرومان واليونان !

ولكن صبراً فستهتدى كلية الآداب بعد حين ، وسترجع إلى سيرتها الماضية يوم كانت مثابة القلوب والعقول .

(للحديث شجون) زكى مبارك